مقدمة

الشِّهاب، لا تراه عين «إنسان الأرض» إلا متى عبر مساحات العتمة القاتمة المزمنة.
ولكي يسمّى شِهاباً، يجب أن يعبُر تلك الظلمات بسرعة، «وينطفئ» بسرعة... أيضاً.
هي واحدة من مشهدِيَّات السماء وربما، من «تجلّيات تعبيراتها».
كتلة أضواءٍ عابرةٍ، هو.
في رمزيّةٍ أخرى من رمزيات عبوريّة «أجساد الحياة» وفي مدى «حياة الحياة».
ينطفئ الشِّهاب.
يعود من حيث أتى، أو يتابع طريقه في خِفيةٍ عن نظر، لا تُنال.
فهذا سرّه، المضاف إلى بقيّة الأسرار.
شُهُبٌ كثيرة عبَرت سماوات عيونٍ غافيةٍ كثيرة، وعيون مساكين عُميان ليس في وسعهم قراءة «أبجدية الضوء».
وشُهُبٌ غيرها نُسبت «لألعاب نارية» صادرةٍ عن «سكان غير كواكب»...، في جدليّةٍ عبثية من جدليات إسقاطات ملامح الجهل على حراك اللوحة الكونيّة.
لا يؤذي «ذاك الشهاب»، ما يدور، وما يُدار، تحته، وحوله، من جدل. لكن الرئيس فؤاد شهاب تعرّض للكثير من الأذى «المُراد».
بدءًا من «جحود نصف الناس» المُعبَّر عنهم في القول المأثور: «نصف الناس أعداء لمن وَلِي الأحكام... هـذا إن عَدَل»؛ ووصولاً إلى أولئك «الأعداء»، المعادين بالضرورة لكلّ نجاح الذين رأَوا أنّه أضرّ بمصالحهم المستدامة ومكتسبات «المقايضات»، وتوزيعات حِصص «أَكَلة الجبنة». مروراً بجدليات تلك «الإنتحالية الطهرانية» للدفاع عن الحريات التي أتقنها وروّج لها «بعض» المتمرّسين بجدْل حبائل المكائد ومن ثمّ فكّها بأسلوب: «لا إله»...!!

عهد الطمأنينة... والسلام الوطني

كونه مؤسس الجيش اللبناني، وذروة السلطة السياسية عبر إجماع شعبيّ تراوح بين الإيمان والتزلّف. ومع هذا، لم تستيقظ غريزة الإستئثار فيه ولم يصبح ديكتاتورًا في منطقة طغت فيها «موضة» عسكرة السلطات.

وتطبيقًا لحكمة فؤاد شهاب التي شاءها غموضه، وهي أن يمحو الصّمت فيه شخصه لتبقى الأعمال، نركّز دراستنا هذه على نظريّاته ومنجزاته وتأثيره في مجرى تاريخنا الحديث بالإعتماد على النصوص والمراسيم والقوانين، والمشاريع والبيانات الإحصائية، مدعمة بصور تاريخيّة غابت عن العين والذاكرة. فالشهابيّة ليست مطمورة في قبرٍ بارد في غزير، وإنما هي جدران وهياكل ودراسات ومشاريع موجودة في كلّ دائرة رسميّة وكلّ مرفأ وكلّ مصرف وتحت خيمة كلّ فرقة جيش أينما وُجِدت، وفي ضمير كلّ مواطن يفكّر ويقارن.

والشهابيّة ليست في شعاراتها أو كُتُب عقيدتها. إنها في ممارسة دؤوبة انطلقت من واقع مأساوي عام ١٩٥٨ وحاولت ناجحة أن تثبِّت ركائز دولة لبنانية عصريّة ذات شخصيّة متميّزة. هي «قضية» لأنها طُورِدت وأُهينت وحوكمت فحُكِم عليها بالبراءة وتخفّت حتى كادت تختفي. وهي «هوية» لأنها تمرُّد على القواعد التقليدية لممارسة الحكم وخطّة استهدفت تخطّي المعالجات العشوائية ومماشاة الظروف راسمةً معالم الدولة العصرية الحديثة.

وإن كان من الطبيعي أن يُسأل موجّه سياسة الدولة عن أخطاء أو كوارث سياسته، حتى ولو حاول جاهداً أن يتصدّى لنتائجها النهائية المغايرة لإرادته، فإن من الغريب والغريب جدًا أن تُسمّم القناعات بتضليلات تُلصِق أخطاءً وهميّة بنجاحات هذه السياسة. فإن تلافى قائد نزاعاً أو صراعاً أو صداماً، اعتبر أنه يقوم بواجبه الطبيعي لأن السلم يُحدث ضجيجاً أقلّ من الحرب «والجماهير تتبع عادةً من يُبهرها وتدير ظهورها لمن يُنيرها».

إن القاعدة العرفيّة التي تتبنّاها الشّعوب من أن السياسة ليست إلا مدرسة الخداع والكذب هي في أساس تحديد وعي هذه الشعوب ومداه، «فماكيافيل» نفسه لحظ وهو يعطي توجيهاته لسفير فلورنسا أن السياسي يجب أن يجتهد بألا يظهر وكأنه رجل يفكّر بعكس ما يفعل. لأن السياسي لا يكتسب عادة رصيده الشعبي إلا بقدر الإيمان بصدقه. وكما يقول «لاروشفوكو»: «لا ننخدع فعلاً إلا إذا اعتقدنا بأننا نخدع الآخرين».

لذا ولأنه يكفي شعبنا ما إجتاحته وتجتاحه من موجات حمّى الإنفعال المضلّلة في عقله

وممارساته أصول التعامل مع الحقيقة، ومن أجل وطن لا تقتل الكلمة فيه قائلها ولا يسحق فجور العنف فيه معنى المواقف الصامتة.

ومن أجل ألا يُعجن التاريخ بإرادة الحاضر وفي سبيل محاولة لملمة بصمات الشهابيّة عن واجهة التطوّر اللبناني. ومن أجل دعوة مفتوحة لمتابعة الطريق التي رسمتها مدرسة «النّهج» على كلّ الصّعد، وفي سبيل عدالة إجتماعية ودولة عصريّة، نكتب من جديد...

لماذا الشهابية؟؟

لأن تراثها العملي أكبر وأعظم بكثير من تراثها النظري. فدستور الشهابيّة مشرذم موزَّع ولكن منجزاتها ثابتة وواضحة... ولأنها تصوّر وتعامل نجحا في رسم خريطة عاهات الهيكلية السياسية والإقتصادية والإجتماعية للبنان وراحا يُفلتان قبضة التخلّف إصبع إصبع عن خِناق المساحات البشرية والجغرافية لقضايانا الوطنية. ولأنها ظاهرة عصرنة راحت تبث في شرايين الوطن دماءً جديدة، فاقتحمت الإدارة وقلبتها وطهّرتها وأخضعتها لمراقبة التفتيش والملاحقة وعنِيَتْ بالتربية وعمّقت دور الجيش في دعم الإستقلال الوطني، وزرعت المشاريع في أرجاء المحافظات الخمس، واهتمّت بالقرية ولجمت البطر الإقتصادي المختبئ تحت مظلّة الحرية. فاستطاعت في فترةٍ يسيرة، وهي المنطلقة من أزمة دمويّة مخرّبة، أن تطلّ بلبنان على العالم عبر شخصيّة قويّة مشرقة تسير بخطى ثابتة نحو الإزدهار.

ولأن الشهابيّة اعتدال إن في تعاملها مع الواقع اللبناني الداخلي، وإن في حيادها وعدم إنحيازها أو تبعيّتها لأي معسكر أو تيّار إقليمي أو عالمي. وهي عدالة لأنها قضاء مستقلّ حازم ونظرة متساوية إلى كلّ المناطق والفئات وخطّة تشمل الجميع. وهي حرية مسؤولة تقتصّ من المشوّشين وتنتفض لعلك الكرامة الوطنية بين فكّيّ كلّ عابر سبيل...

وقبل أن نقع في فخّ الأدب السياسي، لا بدّ من كلمة في سياسة أدب الشهابيّة أو الخلقيّة الشهابيّة التي طبعت النموّ الرّصين لفتوة الجيش اللبناني، والتي جعلت من القصر الجمهوري صومعة عمل لها آدابها كما الهياكل والمساجد، يحتبس الداخل إليها أنفاسه، ويتنفّس في أثناء خروجه الصّعداء...

قد يُقال أن الشهابيّة ليست فلسفة وتنقصها المقوّمات الشموليّة للعقيدة. وقد

يُقال أن طرحها لن يتعدّى دائرة الرأي الشخصي العاجز عن استيعاب كل علامات الإستفهام. وأنها لم تأتِ بجديد على النظريات السياسية – الإقتصادية المعروفة والمتداولة، وأن مداها توقّف عند إنتهاء مهماتها المحدّدة وأنها برنامج مرحلي لإطار زمني وُجد فجأة.

على هذا نرد ببساطة البداهة ووضوح النتيجة الثابتة أن الشهابيّة وإن لم تكن كل ذلك، فهي نمط حياة ونهج وجود وخطّة مستقبل إنطلقت من عمق معايشتها للحقيقة اللبنانية ووُجدت بلا مقدمات ولا تمهيدات، فكانت تعبيراً صادقاً عن حاجة شعبيّة ملحّة في قيادة واضحة الأهداف والأساليب، تستمدّ آراءها من قضايا شعبها وتُبعد عن هذا الشعب تحدّيات الأخطار.

من هذا المنطلق تبرز الشّهابيّة وكأنها «فلسفة القيادة اللبنانية». هذه الفلسفة التي استطاعت أن تكون نقطة إلتقاء غريبة بين إشتراكيات وشيوعيات ثائرة رافضة وبين رأسمالية متحجّرة متزمّتة فساوت الإثنين في كفّتي ميزان العدالة الإجتماعية.

إنطلاقاً من هذه الفكرة، سنركّز في مسحنا لأبعاد الشّهابيّة على واقعين:

واقع أيديولوجيّة مجتمعنا ومدى إمكانية نجاح النظريات الكلاسيكيّة التي تعرفها قواميس الحضارات في التعبير عن حقيقة الكيان اللبناني، ومن ثمّ، واقع المدرسة الشّهابيّة في تعاملها مع هذا الكيان والتأثير فيه والتفاعل معه لتستنتج منه مبادئها بدل أن تفرض عليه مبادئ محنّطة أفرزها عقل الشرق طوراً وعقل الغرب أطواراً فأُلبست لشعبنا قسراً وغصباً.

الشّهابيّة مدرسةٌ لبنانيّة، عقيدةً ونهجاً وعملاً وغائيّة. لم يعكّر صفاء هويّتها اللبنانيّة إتّهام. إنطلقت من عُمق الخارطة اللبنانيّة وتوقّفت عند حدود هذه الخارطة، دون أن تسعى لكي تصبح حركة عربيّة أو شرق أوسطيّة أو كونيّة. أهمّ ما في زمنها كان حاضرها وفي رأس سلّم إهتماماتها: **شعبها**. فلا طفرات الوحدة والإتحادات ولا مدّ وجزر الإتصال والإنفصال ولا المعسكرات القاريّة إستطاعت أن تبهرها لتصرفها عن شقّ طريق، أو بناء مصرف أو مصنع أو مرفأ أو مدرسة. فكان معناها في صِغر حجمها وفي صغر خطواتها الثابتة التي تجمّعت لتصبح خلال ست سنوات عمل، الإرث الأهم في تاريخنا الإستقلالي. إرث ما تزال العهود المتلاحقة تستمدّ منه الخميرة والخبز.

وعندما نقول عُمق الخارطة اللبنانيّة، نعني صميم وجوهر الحياة اللبنانيّة بكلّ ما فيها من توثّب وميول وتناقضات ونقاط ضعف وغرابة. هذه الغرابة التي قلبت مقاييس القاعدة القائلة: «نصف الناس أعداء لمن ولي الأحكام، هذا إن عدل». فحوّلتها إلى «كلّ اللبنانيين» تقريباً «أعداء لمن ولي الأحكام، حتى لو عدل».

الحياة اللبنانيّة التي عدّد الأستاذ توفيق حسن الشرتوني عيوبها عام ١٩٢٧ فحصر هذه العيوب في: «الضوضاء والقذارة ووُحول الشتاء وغُبار الصيف، والتفرنُج والتكالب على الوظائف، والتبذير واعتبار المال أكثر من الرجال، وجهل الناس للحقيقة والغلو في المحادثة ورُقي الأفراد وانحطاط المجموع، والإفراط في التجمّل وكثرة الكلام وقلّة المعنى والتشكّي والزعامة والأحزاب...».

هذه العيوب البريئة دخلت المتحف اللبناني. فلو شئنا مقارنتها مع غيرها المستجدّة، العالقة حديثاً بالطبع اللبناني وواجهة الشخصية اللبنانيّة الواقعيّة، لَبَدَت بريئةً باهتةً سطحيّة. إذ إن ما مرّ على هذا الشعب من ألوان العنف الدموي، قد ألغى، ومنذ عام ١٩٥٨، حقائق كانت في أساس تكوين هويّتنا واستبدلها بأخرى... من هنا راحت الشّهابيّة تتعامل مع هذه المستجدّات فتلغي منها ما يُعيق عودة البلاد إلى مسارها الطبيعي وتُرسِّخ أماني الشعب في قيامة أكيدة.

وإزاء الفسيفساء البشريّة اللبنانيّة، كان عليها أن تحكم وأن تحزم، أن ترسم ملامح قضيّة وطنيّة واحدة، أن تحوّل جهود الإقتتال إلى مناكب وسواعد عمل، وأن تُطوّق نيران الفوضى بأنظمة وقوانين وإجراءات صارمة حاسمة شكّلت مع الوقت أساس هيبة كل ثكنة ومخفر ورجل أمن.

إنّ فهم دور الشّهابيّة ومقدار نجاحها أو إخفاقها وعودة قيامتها على الأقل في النفوس والصّدور المتململة والعيون الدامعة إزاء ما انحدرت إليه أوضاع البلاد والشعب؛ إنّ فهم هذه الظاهرة لا يمكن أن يرتكز إلا على سوسيولوجيّة وسيكولوجيّة المجتمع اللبناني وحده وعلى الأرقام والدراسات والوقائع التي وحدها تُدين وتُنصف، تلغي عاطفة ما أو تؤكّدها.

لذا وبعيداً عن ما هو أعرق من التصفيق والتأييد وأعمق من الموالاة، سوف نسعى إلى تشريح الشّهابيّة وإدانتها لنسمح لها آخر المطاف بأن تجمع الشعب اللبناني، كلّ الشعب اللبناني، في قفص إتّهام واحد وتُدينه. علّنا نساهم بذلك، مرّة أخرى، في إجلاء بعض الملامح لحقائق طمرها الخوف حيناً والعقوق أحياناً...